الهوية العربية والأمن اللغوي (دراسة وتحقيق)*

تأليف أ.د. عبد السلام المسدي**
تقديم :أ.د. محمد عبد العظيم

الكتاب هو آخر مؤلَّفات المفكِّر والباحث الأكاديمي عبد السلام المسدي. وهو عندنا تتويج لما نراه المرحلة الثالثة من مسيرته العلمية، إذ انطلق الرجل من مباشرة النص الأدبي شارحاً وناقداً باعتماد المنهج اللغوي الأسلوبي، ثم ولج مجال اللسانيات العامة ،وقد سعى إلى تأصيلها في بحثه الأكاديمي الأم موضوع أطروحة دكتوراه الدولة بعنوان " التفكير اللساني في الحضارة العربية، "وانتقل بعدئذ، دون قطيعة، إلى مجال التفكير اللغوي بمفهومه الأعم، حيث عكف على التفكير في شأن اللسان العربي في علاقته بمجاله الاجتماعي الحضاري الراهن...

وقد عرَّف الباحث كتابه هذا في المقدمة المختصرة التي خصَّه بها بالقول إنه"خلاصة سنوات متتاليات من البحث والنضال دفاعا عن اللغة العربية".

---

* نشر، المركز العربي للأبحاث ودراسة السياسات بالدوحة ـ قطر، ط 1 ـ بيروت، تموز / يوليو 2014.

** عبد السلام المسدي أكاديمي وباحث تونسي ولد سنة 1945. أستاذ مبرز ودكتور دولة في اللغة والأدب والحضارة العربية منذ سنة 1979، اتجه في أبحاثه إلى اللغة في أبعادها المتعددة. وجاءت مؤلفاته، وهي بالعشرات، صدى لذلك الاهتمام ومنها: الأسلوب والأسلوبية، التفكير اللساني في الحضارة العربية، النقد والحداثة، قاموس اللسانيات، اللسانيات وأسسها المعرفية، قضية البنيوية... ثم الانتحار اللغوي والهوية العربية والأمن اللغوي.

وهو عضو في العديد من المؤسسات والمنظمات والجمعيات العربية المهتمة بشأن اللغة العربية.

تحصل على العديد من الجوائز وشهادات التكريم في أقطار عربية مختلفة.

وغاية جهده فيه كما رسمها، متواضعا، الاستجابة لواجب الفرد المحدود الجهد "في الإنارة يقدم شهادته على تجربته مع الموضوع كما عاشها"[1].

وعدد صفحات الكتاب بلواحقه الثلاثة: المسرد التاريخي وقائمة المراجع والفهرس العام 443 صفحة.

في عنوان الكتاب كَشْف وإخفاء. وموضع الإخفاء "الواو"، واو العلاقة، مما يولِّد التساؤل عن طبيعة العلاقة ونوعها. وذاك هو موضوع الخلاف الحاد الذي يحاول الكاتب الخوض فيه كشفا وتحقيقا وإبداء رأي.

ومتن الكتاب مجموعة من الفصول عددها 22 بلا أقسام ولا أبواب ،مما يطرح سؤال الاتصال والانفصال بينها. وهو عندنا انفصال ظاهر يضمن اتصالا عاما وشاملا؟

الفصل الأول "استئناف الأسئلة"، الحاصل مركب إضافي طرفاه مضاف ومضاف إليه. المضاف، "استئناف": ما مفهومه وما هي أبعاده؟

ومضاف إليه، "الأسئلة" إشكالي في مفهومه وعدده: السؤال حيرة والجمع هو المضاعفة دون حد معلوم؟

وبالعودة إلى المتن وسياق التأليف ،ينكشف لنا أنّ للكتاب نواة سابقة الوجود هي كتاب "العرب والانتحار اللغوي"[2]، وبذلك يكون الكلام هنا استئنافا لكلام سابق "ما كنت أحسب أني أعود.... وها إني أعود"[3]. الانتحار موت وموت الكلام نهايته وموت القول، لكن الانتحار هنا ليس الفعل الناجز. وإنما الفعل المعني بالقول. فالكتاب إذن هو استئناف للكلام في "الانتحار اللغوي". هو استئناف الحيرة، حيرة الأسئلة: "كنت أتبين جيدا أن الحديث عن انتحار العرب لغويا صادم، فعبارة الانتحار تتوسل بالمجاز وتحمل قسوة ظاهرة.

1 – مقدمة الكتاب، ص 7.

2 – عنوان كتاب للدكتور عبد السلام المسدي، نشر ببيروت سنة 2011.

3 – الهوية العربية....ص1.

ولا غرابة أن تبدو أثقل حملا من أعباء الواقع نفسه. والسبب أن الرائي يتمثل من المجاز ما تنجلي له ملامحه عن قرب، أضف أنّ الانتحار في معناه الحقيقي فعل واع لأنه قصدي، لا يأتي إلا نتيجة إضمار سابق بصرف النظر عن الحال النفسية التي يكون عليها فاعله في لحظة الإنجاز. أما الانتحار اللغوي الذي نتحدث عنه فهو مشفوع بالغفلة. وهي من تلك الغفلات التي يرتاح بها أصحابها، وربما يزعجهم أن نسعى إلى إخراجهم منها. ثم هو انتحار بطيء، رحيم، لأن فيه استجابة إلى نزعة المجهود الأدنى، فضلا عن أنه انتحار جماعي فهو ليس موجعا للفرد لأنّ المد العام يدفعه في اتجاه الانسياب الجذاب. لكنّ إرثنا الثقافي يظل نفورا من الانتحار مضمونا ولفظا"[4].

ولكن هل أدت صدمة الانتحار التي اختارها الكاتب الأثر المرجو منها أم غلب عليها لطف المجاز بدل قسوته المقصودة ،فخف حملها حتى لم تنجح في الكشف عن أعباء الواقع...؟

فهل ما يحدث هو فعلا انتحار، فعل واع أم هو اغتيال في حالة غفلة من المفعول به بدل الفاعل، أم هو ذاك الضرب من الانتحار الذي أشار إليه الكاتب، الانتحار في غفلة مريحة يطمئن إليها المنتحر لأن لا جهد فيها ولا مسؤولية فردية ظاهرة. فلا وجع بل "انسياب جذاب" على حد عبارته.وعامتنا تقول "الهمّ إذا عمّ خفّ" و"الشنقة مع الجماعة خلاعة..."؟

يبدو أنّ هذا الثاني هو الذي حدث فأدرك الكاتب أنّ ما فعله وخز أو غمز لا بدّ أن يعضده الهمز، وهنا مبرر "الاستئناف" المعني في هذا المؤلف...ما دام المتلقي ليس من قبيل من يفهم الغمز وإنما هو ممن قد ينفع معه الهمز...أو هو حتى من قبيل الجريح الذي عناه المتنبي حين قال: "وما لجرح بميت إيلام..."؟؟

وما دام الأمر قد بلغ حد الموت أو شفاه، لا بدّ من تعميق التحليل والرصد... لا بدّ للكاتب أن يتقلد المبضع بدل اليراع...

4 – م ن ص11.

وما أن يعمل المبضع حتى ينكشف كل مخفي ويظهر كل ما في داخل الجسد، مكونات عديدة تجسدها في الكتاب فصول متعددة، اثنان وعشرون. كل فصل منها يبدو مستقلا بذاته وهو في الحقيقة مشدود إلى البقية بخيط دقيق، شرايين ناقلة للحياة أو مؤشرة على الفناء...

أولها ـ الفصل الثاني ـ مجاله الذهن ومنهجه التجريد ـ "الوعي اللغوي": عام قد يكون أزليا في مساره، قد يستمر وقد يعطل لسبب مّا، أو لعله منشود بفعل النعت الذي يسمه "الجديد". ولكن أهو الجديد الكائن أم الجديد المنشود؟ إنه تبشير بنقد خطاب الوعي الموجود.

وبعد التحليق في مجال التأمل وربما الأحلام، لا بدّ أن تتغلب جاذبية الواقع فيدخل الباحث "الجراح" "البيت بيت العرب"[5] وينظر في "خطاب اللغة"[6] وحوامله أنظمة ومؤسسات، النظام العربي و"مؤسسة الثقافة العربية"[7] عبر النظر في " ما وراء اللغة "[8] و"مجتمع المعرفة"[9]، فيقرأ النصوص المخاتلة وأصداء الوعي المجهض بفعل التلكؤ في الإجراء وتنصل أصحاب القرار والماسكين بأزرار التنفيذ من فعل الإنجاز.

ويلح السؤال الأساسي الحارق "من ينهض باللغة"[10] فالساسة انحرفوا عن الوعي بقيمة اللغة وعلاقتها بالتنمية وبالهوية الشديدة التوالج بمفهوم الأمن. والمؤسسات العربية والرسمية القطرية ومنظمات المجتمع المدني والمجامع اللغوية تنجح كلها في التوصيف وتستعفي من العلاج، فتتقاذف المسؤولية ليستحيل الفعل، كما تتقاسم القبائل دم القتيل ليخمد صوت الثأر بدل الاجتماع على حمل الحجر المقدس.

---

5 – عنوان الفصل الثالث "في بيت العرب"، ص 31.

6 – عنوان الفصل الرابع "النظام العربي وخطاب اللغة"، ص 49.

7 – عنوان الفصل الخامس "مؤسسة الثقافة العربية"، ص 61.

8 – عنوان الفصل السادس "ما وراء اللغة"، ص 77.

9 – عنوان الفصل السابع "مجتمع المعرفة"، ص 89.

10 – عنوان الفصل الثامن " من ينهض باللغة ؟"، ص 103.

ولا يجد الراصد للوضع إلا لباس المرشد ليشير إلى ما يراه "مراجعات أساسية"[11]، فحواها أهمية الوعي المطلوب بعلاقة اللغة عامة باللسان العربي بين الماضي والحاضر وأهمية المعجم التاريخي المنشود وخصائص النحو العربي وخاصة علاقة الإنسان عامة والعربي تحديدا باللغة لتنبجس فرضيات أساسية يحملها شعار " لا إنسان بلا لغة ولا لغة بلا هوية "[12].

ولأن الإجمال مما يمكن أن يتسم بالإطلاق فيفقد الكثير من دقة التصويب، كان لا بدّ من المراوحة "بين المطلق والنسبي"[13]، فترتسم صورة الهوية في ثلاثة أبعاد، فإذا هي هويات متعددة: وطنية وحضارية وسلالية وحتى عقدية، لكن خيطاً دقيقاً رابطاً يخترقها جميعا اسمه "اللغة"، فترتسم الهوية الجامعة، الهوية اللغوية، فإذا هي إلى ذلك الأكثر تجذرا لأنها وحدها العماد القابل للفحص العلمي والاختبار العقلاني. والنعت هنا لا يخص لغة بعينها، ودون مفاضلة بين اللغات، لأن "كل لغة هي الأفضل عند أهلها" وإذا كان لبعضها فضائل في ذاتها فلا مجال للاطمئنان إليها وحدها ضامنا لحمايتها ودوام حياتها مهما قويت وتعددت لها الحجج حتى بلغت مستوى القداسة شأن العربية "لأنّ اللغة بأهلها"، فهي ظاهرة اجتماعية إلى جانب كونها ظاهرة طبيعية. ولذلك يلح سؤال: من ينهض باللغة؟ في خضم "تجليات الوعي"[14]، وقد حصل عندنا فتعددت مؤسسات المجتمع المدني فأنتجت حسا ونشرت وعيا. ولكن ما كان لها أن تصوغ قرارا. وابتدع العرب ما اصطلح عليه الكاتب "مجتمع الرعاية"[15] ليكون حلقة وصل بين المجتمع المدني ومؤسسات النظام الرسمي...

11 – عنوان الفصل التاسع " مراجعات أساسية "، ص 117.

12 – المصدر، ص 127.

13 – عنوان الفصل العاشر " بين المطلق والنسبي"، ص 129.

14 – عنوان الفصل الحادي عشر " في تجليات الوعي"، ص 155.

15 – يعرّفه الكاتب بأنه " الفضاء الجديد الذي لا هو مجتمع مدني خاص ولا هو مجتمع رسمي ملزم للدولة من حيث هي دولة"، ص 169.

ولكن يبقى السؤال حائرا يهفو إلى جواب...رغم حركة "الفكر العربي"[16] الذي صاغ مشاريع وبنى مؤسسات وعقد قمما ونظم ملتقيات ونشر توصيات وعقد مواثيق. وها قد بلغ الوعي أقصاه حتى أدرك " أنّ السيادة الاقتصادية رمز للسيادة السياسية وأنّ السيادة السياسية مستحيلة بدون سيادة ثقافية لغوية وأنّ امتلاك لغة الآخر سلاح ليس له اعتبار تقديري في السياسة والاقتصاد والثقافة إلا إذا استند إلى مرجعية لغوية قومية تعين الأنا على أن يقف ندا للآخر"[17].

ذاك مصاف الوعي، أما في الواقع فنحن "أمة بلا مشروع لغوي، نحن مجتمع يريد أن يبني منظومة تنموية وهو يغمض العين عن مأزقه اللغوي المكين"[18].

لقد اتضحت الصورة وبان التناقض ، فكان لا بدّ للناظر في الهوية العربية والأمن اللغوي أن يلج أبوابا نراها "أمّ الكتاب" وقد توسطت المؤلف : الفصول 12و 13 و14، وفيها احتد الهم وقوي الاجتهاد وازداد المسبار الراصد حساسية ليقف على مفهوم الهوية ويمسك بالمعضلات ويكشف خطأ المسار المتبع الذي لا يرى حقيقة العلاقة بين اللغة والسياسة ولم يعلم أنّ "من ظن أن اللّغة شيء والسياسة شيء آخر فقد وضع نفسه خارج منطق التاريخ. ومن توهم أن الخيارات السياسية تستقيم في معزل عن الخيار اللغوي فقد ظلم السياسة وظلم اللغة وظلم نفسه...لأن السياسة ملازمة للّغة والوجود اللغوي، بطرفيه المتناهيين : البقاء والاندثار، مرهون بالفعل السياسي كإرادة وقرار وكإنجاز"[19]. ومن الحري المنطقي أن نجعل قاعدة الجميع الوعي والإرادة. ولا حل عندئذ إلا أن يكون صاحب السياسة ثائرا ثقافيا لغويا ؟؟وأن يكون المسؤول مدركا لواقع اللغة وحتمية التدارك والعزم على الإنجاز وتحقيق المنشود للنهوض حقا باللغة العربية.وهو " عمل استراتيجي طويل النفس تتآزر فيه جميع القوى الحية الفاعلة

16 – عنوان الفصل الثاني عشر "مع الفكر العربي"، ص 171.

17 – ص 198- 199.

18 – ص 199.

19 – م ن ص ن.

في المجتمع معضودة بإرادة نافذة من صناع القرار تدعمها عزيمة جريئة من لدن القائمين على مؤسسات العمل العربي المشترك جميعها"[20].

وهنا يستبد بنا من جديد هاجس الإرادة الصادقة من قبل من بيده مفتاح الفعل وتتجلّى أمامنا صورة التشتت العربي والإقليمية التي نراها عامل الانكسار والفشل التي كانت مآل كل اجتهاد...

أما صاحب البحث فقد تجاوزه إلى إنجاز ما يراه من حقه وواجبه في المحل الذي هو فيه؛ أي توضيح المفاهيم التي لا بدّ من إدراكها، ومنها علاقة الهوية بالمعلوماتية وما تنفتح عليه من خفايا العولمة وخطرها على الهويات القومية وما تقتضيه من واجب التمكن من المعلوماتية[21] للحفاظ على الهوية.وهو السلاح الذي لم يتمكن منه العرب بعد رغم " تعدد الأبعاد"[22].

وكان لا بدّ من التأكيد على"علاقة اللغة بالهوية"[23] طرفي عنوان الكتاب والنظر في ما تلحقه بهما أطراف عديدة تبدو متنافرة متباعدة، وهي في الحقيقة متعاضدة. ف "كم يحدث أن يتعاون أصحاب القرار مع فئات محسوبين على النخبة كي يتقلص إشعاع اللغة العربية ،ثم يتفتت كيانها تدريجيا، وإذ بهؤلاء وأولئك ـ دونما قصد أو إضمار ـ حلفاء موضوعيون لإرادات دولية نافذة ما انفكت تضغط كي تلاقي العربية المصير الذي لقيته اللاتينية.. فتحل العاميات المنحدرة منها محلها "[24]. وبهذا تتضح تلك الأطراف جميعها فنرى أولي الأمر عندنا" بين خطاب يشي بإدراك قوانين الوجود الدولي في العصر الجديد وسلوك يؤكد الهوة المفزعة بين الأهداف الواضحة والمسالك التي لا تفضي إلا إلى نقائضها"[25].

---

20 – ص 209.

21 – عنوان الفصل الرابع عشر " الهوية والمعلوماتية "، ص 215

22 – عنوان الفصل الخامس عشر" تعدد الأبعاد"، ص 239.

23 – عنوان الفصل السادس عشر " الهوية واللغة "، ص 257.

24 – ص 262.

25 – ص 266.

"وتجد المثقف يدير شأنه الفكري والأدبي والإبداعي بلغته القومية...ثم إذا حاور أو ارتجل أو تحدث عبر أمواج الأثير أو على شاشات المرايا توسل باللهجة... فهو بذلك مثقف متواطئ على ذاته الثقافية... يحيك المشهد الأول من تراجيدية الضياع اللغوي الذي ينذر بانسلاخ الهوية الحضارية"[26]. فكأن قد غاب عن هؤلاء جميعا ما يراه الكاتب من طبيعة العلاقة بين الهوية واللغات الأجنبية أولا واللهجات الدارجة ثانيا. فالأولى عنده "كانت فعلا عدوا تاريخيا وستظل فعلا عدوا تاريخيا، ولكننا مدعوون اليوم إلى أن نتخذها حليفا استراتيجيا بعيد المدى فنستنبط معها عقد شراكة بكل فوائضه القيّمة المربحة"[27]. أما الثانية فهي "شقيق طبيعي يتحول على أيدينا إلى عدوّ أيديولوجي بكل قيمه السلبية الناسفة"[28]. متى تحول وسيطا ثقافيا وناقلا للمنتج الفكري والإبداعي عند التواصل...

وأما "علاقة اللغة بالسياسة فهي أمر بديهي. لكنّ علاقة الخيار اللغوي بالصراع السياسي الممتد على الزمن الطويل أقل انجلاءً، لذلك يمكننا أن نعتبر الوعي به مسبارا نقيس به انخراط شعب من الشعوب أو أمة من الأمم في النسق التاريخي الواعد..."[29].

أما المنشود فعماده ما صاغه الكاتب بشكل تقريري هو إلى الشعار أقرب إذ قال "إن السياسة جسر عماده الثقافة، والثقافة نهر تسقي جداوله مزارع السياسة، والهوية قلعة حصنها الثقافة وسياجها اللغة"[30]. إنه شعار رومنسي النص ولكنه مكين الأسّ... وأوان السياسة اللغوية عند أهل الدراية المختصين ليست مجرد سياسة للتعريب كما يتوهم الكثيرون و"ليت ملوكنا ورؤساءنا

26 – ص 271.

27 – ص 272.

28 – ص ن.

29 – ص 276.

30 – ص 280.

يستيقظون فيعوا أنّ الأمن اللغوي جزء لا يتجزأ من الأمن القومي، لا يقل أهمية عن الأمن الغذائي والأمن المائي"[31].

وبمثل الوعي بهذه الثوابت ينطلق الفعل إذ تدرك أهمية الوثائق "المعجم التاريخي"[32] ـ ومكتسبات العلوم الحديثة لتوظف في تعليم الطفل العربي لغته وشروط الاكتساب اللغوي ورهاناته...والإيمان بكل ذلك تؤكده ثوابت من تاريخ علاقة الشعوب والحروب بالعامل اللغوي في محطات من التاريخ معلومة ومواقع من الأرض محددة. وبعد هذا كان من الطبيعي أن ينقطع الكلام بصرخة أو ما يشبهها، نصها "ألا إن صيانة لغة الضاد من خطر الامّحاء هي صيانة للهوية العربية وصيانة للأمن القومي"[33]، صرخة تعرّت فيها اللغة من رداء المجاز وانبرى بها الكاتب كما لنفسه شاء، ولكن تبقى أسئلة ترهق من هو في مثل موقعي.

1ـ أين نضع هذا الكتاب بين مؤلفات البحث جميعها وهو في صورته العامة الجامعة لوحة فيها عالم يخطط ونخب تنظر ومجتمع مدني يجتهد ومؤسسات تخاتل وحاكم يراوغ ومواطن يفنى...ولكل فاعل وفعل لا بدّ من تضافر علوم حتى تتجلى حقائقه...

والمنهج فيه قوامه الرصد الثقافي والاستكشاف المعرفي، منهج علمي لنضال فكري حيث اجتمعت موضوعية العلم والعقد الاجتماعي.

أما الأسلوب فهو صرامة العلم وقد تدثرت دثار الأدب والمجاز وسلكت حبكة السرد ؟؟؟

---

31 – ص 280

32 – عنوان الفصل السابع عشر "نحو المعجم التاريخي"، ص 283.

33 – ص 403.

2 – ومن يكون الكاتب، أهو اللغوي العارف بعلوم اللسان ودقائقها أم الباحث الاجتماعي الخبير بخفايا المجتمع ومسالكه أم المحلل السياسي المدرك السياسة ومقتضياتها وأساليبها أم المؤرخ كما يراه ابن خلدون ناظرا ومحققا أم الأديب السارد وقد أشبع يراعه بلاغة ومجازا إلى حد الشعرية أحيانا في سياق لا يبدو مما يقتضيه. ثم ما موقفه، أهو اليائس النائح أم المرشد الناصح وهو يرسم مسار الخلاص؟؟؟

أسئلة نبقيها معلقة إذ لا جواب لنا حاسما فيها. وحسبنا أن ننقلها لمن يقرأ الأثر بمثل عيننا.

ومهما تكن الأجوبة، يبقى الثابت أن كتاب "الهوية العربية والأمن اللغوي..." لعبد السلام المسدي، إلى جانب كونه بحثا معمقا دقيقا في قضايا طرفي المعادلة ـ الهوية واللغة ـ من وجهة نظر صاحبه هو أيضا، عندنا، وثيقة مرجعية هامة وأساسية لمن أراد خوض غمار هذا الموضوع الحيوي.

وهو ليس كذلك لما يفتح من مجالات للبحث للأفراد والمؤسسات حين ينشدون التعمق في القضية ومسائلها الدقيقة الشائكة على نهج المؤلف،وقد فتح لهم أبوابها وأشار إلى مغالقها فقط، وإنما لما يضعه بين أيديهم من نصوص ووثائق وردت منتشرة متداخلة في المتن ثم نظمها المسرد الذي أعاد فيه الباحث "تبويب كل التواريخ المذكورة للتسلسل الزمني" وقد عززه بما نراه لا يقل عنه قيمة لمن أراد الاطلاع والتزود بآليات البحث أي قائمة المراجع الثرية المرتبة علميا إلى كتب ودوريات ووثائق ثم بعض المؤلفات الأجنبية ثم الفهرس العام الذي أراده صاحبه جمعا منظما ألفبائيا لأسماء الأعلام والدول والمؤسسات والجمعيات والأحداث، مشارا إلى مواضعها في صفحات الكتاب.